باب المراسلة والمناظرة

مهد الجنس السامي

استاذي العزيزين

قرأت اعتراض الكاتب الفاضل سوري افندي على خطابي "مهد الجنس السامي" فاشكر له اولاً لانهُ قرأ هذا الخطاب وثانياً لانهُ اعترض عليهِ لكي تبين لي اذا ما يمكنني دفعهُ من اعتراضات هذا الفاضل ارجوكم اصلاح ما وقع من الخطاء في اول القطعة الاخيرة من الخطاب فان القراءة الصحيحة ينبغي ان تكون هكذا " وخلاصة القول ان اللغة السامية المنتشرة بين الفراتين وخليج العجم وعمان شمالاً وشرقاً وبحر الهند او العرب جنوباً والنيل والبحر المتوسط غرباً كان مهدها الاول الذي نشأت فيهِ بلاد العرب — فبلاد العرب هي مهد الجنس السامي ومنشأ المدنية الاولى الخ "

بعد هذا التصحيح اتقدم للنظر في اعتراضات سوري افندي قال

اولاً ان مهاجرة الامم من جزيرة العرب الى العراق العربي او ما بين النهرين مخالف لطرق المهاجرة التي جرى عليها الناس من اول عهدهم الى الآن وهي السير مع الشمس من الشرق الى الغرب او مع الانهر من الشمال والشمال الشرقي الى الجنوب والجنوب الغربي

والجواب عن هذا الاعتراض ان طريق المهاجرة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ليس في الاسباب الطبيعية المعروفة ما يوجبهُ على المهاجرين ولا في الاستقراء ما يجعلهُ مطرداً وقد هاجر الاقوام قديماً وحديثاً من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى الشرق واقرب شاهد على ذلك ما جاء في عدد اوغسطس سنة ٩٠٧ من المقتطف الاغر وجه ٦٠٥ وهذا نصهُ

"وبلاد تنط هذه على ساحل البحر الاحمر شرقاً وغرباً حيث بلاد اليمن وبلاد العمونيل وكان المصريون الاقدمون يقدسونها ويقال في تقاليدهم ان اسلافهم مرّوا بها وهم آتون الى القطر المصري" اه

وظاهر من هذا ان مهاجرتهم كانت من الجنوب الى الشمال

ثمَّ ان العرب هاجروا قديمًا اي قبل التاريخ المسيحي او في اوائله وحديثًا اي بعده (ومهاجرتهم لا شك فيها) من نجد الى العراقين ومن ارض البحرين وعمان واليمن الى العراقين ايضًا. وقد جاء في اثبت التواريخ ان العرب استولوا على بابل بثبات من السنين قبل التاريخ المسيحي

ومعنى ذلك انهم هاجروا الى ارض بابل غزاةً وفاتحين ولم يحفلوا بالاعتراض الذي اعترضهُ سوري افندي. والخلاصة ان مهاجرة العرب الى العراقين عراق الفرات وعراق دجلة كانت مشاهدة في كل اعصر التاريخ المعروفة ولا تزال جارية حتى هذه الساعة فليس اذن من مانع يمنعها في الزمن الذي اشرت اليهِ وان خالف طريقها طريق المهاجرات الذي اشار اليهِ حضرة سوري افندي

على اني مع ذلك اقول ان مهاجرة العرب الى العراقين كان طريقها موافقًا لطريق المهاجرات التي يعترف بها حضرة المعترض لانهم اي العرب يمكن ان يكونوا في مهاجرتهم هذه قد اتبعوا سواحل البحر الى ان بلغوا مصبّ الفرات والدجلة ثمَّ اتبعوا مجاري الانهار الى الشمال كما فعل اهل قنط الذين اشرنا اليهم قبلاً الآن

قال ثانيًا ان الشعوب التي تهاجر تأخذ لغتها معها وهذا الاعتراض لنا لا علينا فان الاساس الذي تستند اليهِ مقالتنا في "مهد الجنس السامي" هو اللغة لانَّا قلنا فيها ان الشعب الساميّ او المتكلم باللغة السامية الذي ترك لنا تلك الآثار العظيمة في بابل واشور آثارًا يمتد عهدها الى نحو من اربعة آلاف سنة ق. م او اكثر على ما يقول علماء العاديات — هذا الشعب جاء ما بين النهرين فاتحًا. فمن اين جاء؟ وأرجح ما يمكن ان يقال في الجواب انهُ جاء من البلاد العربيَّة أمَّا هل كان سكان البلاد العربيَّة كلهم ساميين اي من نسل سام او كانوا حاميين او خليطًا من السلالتين فما لم اقصدْ للكشف عنهُ ولهُ رجال غيري صرفوا ايامهم في هذا البحث وهم اولى بهِ مني

ولكني اقول انهُ اذا كان الحاميون سكنوا العربيَّة واقتسموها مع ابناء عمهم سام فلغتهم كانت لغة ابناء عمهم او صارت اليها وحينئذٍ فيجوز ان يكون الذين نزحوا الى بابل ومنها الى جهات اشور حاميين او ساميين او خليطًا من القبيلين

قال ثالثًا ان مجيء الفنيقيين من جهات خليج فارس لا يستلزم كونهم من العرب ولا كونهم من جزيرة العرب اذ يحتمل او يرجح انهم من الامم القديمة الذين هاجروا من الشمال الشرقي من اواسط آسيا فركب بعضهم البحر وجاء افريقيا وسار بعضهم برًّا الى بلاد العرب اه

في هذا الاعتراض صوابٌ وهو قولهُ — ان مجيء القوم من جهات خليج فارس لا يستلزم كونهم من العرب — لانهُ يحتمل كونهم اراميين او كوشيين لغتهم الارامية واما ما ذكرهُ في بقية اعتراضهِ الذي تقلناهُ بحروفهِ ففيهِ مغالطة كثيرة منها قولهُ اولاً — ان مجيئهم من خليج فارس لا يستلزم كونهم من جزيرة العرب — والذي اراهُ هنا ان حضرة المعترض صانع بلفظ — خليج فارس — فانهُ اقامهُ مقام ارض البحرين على خليج فارس ولولا هذه المغالطة لظهر حالاً المنافضة بين اول عبارتهِ وآخرها لان ارض البحرين على خليج فارس هي قسمٌ من جزيرة العرب كانت ولا تزال لحد هذه الساعة

ومن المغالطة ايضاً قولهُ ثانياً — اذ يحتمل او يرجح انهم من الامم القديمة الذين هاجروا من الشمال الشرقي من اواسط آسيا فركب بعضهم البحر وجاء افريقية وسار بعضهم براً الى بلاد العرب

فان ترجيح حضرة المعترض ان القوم من الامم القديمة الذين هاجروا من الشمال الشرقي من اواسط آسيا ليس لهُ ما يسندهُ وهو مخالف لتقاليد العرب التي نقلها عنهم اراتوسثنيس اليوناني ولخواها ان اهالي جزيرتي تيرس وارادوس في خليج فارس يقولون ان المدن الفينيقية على شواطىء بحر الروم هي مستعمرات من مستعمراتهم . ومخالف ايضاً لما رواهُ هيرودوتوس من ان الفينيقيين جاؤا الى شطوط المتوسط من ارض البحرين او من خليج فارس على ما هو متعالمٌ ومشهور

على انا لو سلمنا بترجيح حضرة المعترض انَّ القوم من الامم القديمة الذين هاجروا من الشمال الشرقي من اواسط آسيا لم نرَ بدّاً من السؤال ماذا كانت لغتهم قبل ان هاجروا مهاجرتهم هذه فان قال انها الارامية لغتهم المعروفة قلنا حينئذٍ ان ترجيح حضرتهِ يستلزم ان الفريق الذي هاجر براً الى ارض البحرين هاجر اما غازياً او مهزوماً يطلب مقراً لسكناهُ فمرَّ على بلاد العراقين من شمالها الى جنوبها حتى وصل اخيراً الى بلاد البحرين بلاد الجوع والشظف بالنسبة الى البلاد التي كان فيها والبلاد التي مرَّ عليها وقد حفظ في هذه المهاجرة قوام جنسيتهِ حتى وصل الى البلاد التي الفى فيها اخيراً عصاهُ ولم يتعرَّض للامم التي مرَّ بها ولم تتعرَّض لهُ . وفي هذا الفرض من البعد ما فيهِ لانهُ لو هاجر غازياً لكان اولى بهِ ان يحتل بقعةً من بلاد اشور او من بلاد الكلدان الخصيبة ولو هاجر مهزوماً لتخطفتهُ سكان البلاد التي مرَّ بها ولم تدعهُ يصل عليها الى بلاد البحرين

وان قال ان لغتهُ كانت فرعاً من اللغة اليافثية كانت الصعوبات التي يعترض بها ولا

نجد لها حلاً اكثر من الصعوبات التي ذكرناها لانهُ حينئذٍ فوق ما ذكرناهُ من المستبعدات يكون قد حفظ جنسيتهُ من حيث هو شعب او قبيلة مجتمعة واضاع لغتهُ وهذا مما لا يمكن التعليل عنهُ بوجهٍ من الوجوه تعليلاً ينطبق على شرائع العمران والهاجرة المعروفة منذ اقدم الازمنة الى الآن . وكيفما قلبنا ترجيح حضرة المعترض نراهُ بعيداً عن المعقول المتعارف فضلاً عن انهُ مخالف للمنقول عن التقاليد القديمة في اصل القوم ومكان هجرتهم الاولى

قال رابعاً ان الاستشهاد بمؤرخي العرب لا يقوم دليلاً لان اقدم مؤرخي العرب نشأوا منذ عشرة قرون او احد عشر قرناً وهم لم يبحثوا في عاديات الامم السالفة بل جمعوا ما وصل اليهم بالنقل المتواتر عمن كان قبل عصرهم بقرن او قرنين او ترجموا ترجمة سقيمة من كتب اليونان والرومان والفرس . ونحن لا نثق بما كتبوهُ عما حدث في زمنهم فكيف نثق بما كتبوهُ عما حدث قبل زمنهم بالفي سنة او ثلاثة آلاف سنة اه

القول في دفع هذا الاعتراض ان الكاتب ظلم مؤرخي العرب وتوهم في اهل العربية انهم كلهم أعراب يرعون الابل في قفار الحجاز ونجد وشماليهما بين الفرات وسوريا. والحال أنَّ من بلاد العرب اليمن وحضرموت وعمان وارض البحرين واهل هذه البلدان بين اعرق امم العالم في الحضارة والتجارة والصناعة وهم تجار المكونة في العصور السالفة قبل التاريخ المسيحي . وفي بلاد اليمن وحضرموت من الآثار على الحجارة بالخط المسند ما يكاد يضارع الآثار الباقية في مصر وبلاد ما بين النهرين وما زال هذا الخط يقرأ ويترجم عنهُ الى الجيل الثالث بعد الهجرة . وعليهِ فالمرجع ان مؤرخي العرب — واكثرهم بن اليمن وحضرموت او ممن كان لهم اتصال بهما و بآثارهما — نقلوا ما نقلوهُ من الشذرات عن العصور الخالية من تلك الآثار او عن كتب التواريخ التي كانت مكتوبة بالخط المسند . واقرب مستند اليهِ قولنا هذا ما جاء في جغرافية بلاد العرب للهمداني في كتابهِ المعروف باسم "وصف جزيرة العرب" قال هناك ما نصهُ "ثم ذمار وساكنها من حمير وفيها نفرٌ من الابناء والقساريّ المحدّث ولم يزل بها و بالجند وجيشان علماء فقهاء مثل ابن قرّة صاحب المسند وعبد الرحمن ابن عبد الله قاريء المسند" وقال ايضاً — "وصنعاء اقدم مدن الارض لان سام بن نوح الذي اسسها وقد جمعتُ اخبارها في كتاب الاكليل واضربنا عن ذكر قديمها في هذا الموضع صفحاً ولم يزل بها عالم وفقيه وحكيم وزاهد — ومع ذلك اهل تمييز لعارض الامور وخدمة السلطان بأهبةٍ وغلك وتنعم في المنازل ولهم صنائع في الاطعمة التي لا يلحق بها اطعمة بلد ولهم خط المصاحف الضعاني المكبر والتحسين الذي لا يلحق بهِ ولهم حقائق الشكل ذكرهم بذلك

الخليل ولم الشروط دون غيرهم ولا يكون لفقيد من اهل الامصار شرط الّا ولم يبلغ سنهُ واعذب لفظًا واوقع معنىً وانرب اختصارًا . ومنهم الخطباء كطرف بن مازن وابرهيم بن محمد بن يعفر وفيها الدلماء كوهب بن منبه وأخويهِ همام وعقيل وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن داود وابن الشرود وهشام بن يوسف ومطرّف بن مازن الخترع لمفارغ النيول . ومن اصحاب القوم دردان وابو عصمة وابو جندة وابن عاصم وابن المنيذر وابن عبدالله وغيرهم . ومن الشعراء الخ . الى ان قال ولم يزل فيها من كتبة الديوان بلغاء غير مولدي الكلام ولا مستفني المعاني ومبعدي الاستعارات مثل ابن ابي رجاء وغيرهم . وكان بشر بن ابي كبار البلوي من ابلغ الناس وكانت بلاغتهُ تتهادى في البلاد وكان لهُ فيها مأخذ لم يسبقهُ اليهِ احد ولم يلحقهُ فيهِ وتعجب بلاغتهُ ونقاستها وانهُ فيها أوحد ورتبهُ لا يشابهُ بلاغتهُ البلغاء وانهُ منفرد بحسن اختلاس القرآن اثبتنا منها عشر رسائل ليستدل بها على ما وراءها وانل الاثر دليل على المؤثر — كتب بشر الى ابرهيم بن عبد الله الحجبيّ والي صنعاء لهارون الرشيد

اما بعد فإن رأى الامير امتع الله بهِ أنْ لا يُعلم هشامًا ما يريد من صلتي فانهُ لم يرد في والٍ قطّ بخير ولم ينتجع لي باب صلةٍ فتكون منهُ خالصةً لا يريد بها الّا وجه الله وحدهُ ولا يرجو بها الّا ثوابهُ الّا عرض هشام من دونها فثقّلها وكرّهها وادار القياس فيها وضرب لها الامثال وانق الحيلة فيها الى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله اني لكما لمن الناصحين ومدحتي بما لا يسمع بهِ من اخلاقي واثنى فيَّ بما لا يطمع بمثلهِ مني ليكون ما اظهر من المدحة مصدّقًا لما اسرّ من العيبة ثمّ زخرف ذلك بالموعظة وزينهُ بالنصيحة وقاربهُ بالمودّة واغراهُ من ناحية الشفقة وشهد عليهِ اربع شهادات بالله انهُ لمن الصادقين والخامسة ان غضب الله عليهِ ان كان من الكاذبين فاذا الحاجب يزلقني ببصرهِ واذا الكاتب يسلقني بلسانهِ واذا الخادم يعرض عني بجانبهِ واذا الوالي ينظرني نظر المنشيّ طليهِ من الموت فصارت وجوهُ النفع مردودة وباب الطمع مسدودًا واصبح الخير الذي كنت ارجوهُ هشيمًا تذروهُ الرياح والصلة التي كنت اشرفتُ عليها صعيدًا زلقًا واصبح ماؤها غورًا فما استطيع لهُ طلبًا فاسأل الذي جعل لكل نبيّ عدوًّا من المجرمين ان يكفيني شرّهُ ويصرف عني كيدهُ فانهُ يراني هو وقبيلهُ من حيث لا ارام والسلام

انتهى ما اردت نقلهُ عن المسداني وقد اطلت في النقل شيئًا ليظهر لك ما كانت عليهِ صنعاء في ايام هرون الرشيد

والمتدبر لهذا النقل يتضح لهُ ان كان في صنعاء علماء وادباء وكتبة مثل بشر هذا ليسوا

بدون اشهر كتابنا في هذا العصر ولكتاب بشر هذا الذي قضاء بغرقه لا يأسف البتة كتابنا في مصر والشام ان ينسب اليه إن لم نقل انهُ يفخر بنسبة مثلهِ اليهِ . واذا علمت ان صنعاء كانت حينئذٍ في دور انحطاطها وانها كانت قبل التاريخ المسيحي فوق ما كانت عليهِ في زمن الرشيد تغير فكرك في العرب وفي كتبة العرب ومؤرخيهم وعدلت عن رأيك فيهم

قال خامساً — ان الناس مهما بعدت لغاتهم وعاداتهم عن اصلها بالتنوع الطبيعي او بالمخالطة لغيرهم من الامم فلا يستطيعون ان ينوّعوا بنية اجسامهم كاشكال رؤسهم والوان شعورهم وملامح وجوههم . واذا ظهر شيءٌ من التنوع في الكبار لا يظهر في الاطفال الاَّ بعد ان يرسخ رسوخاً تاماً على مرّ السنين وتوالي الاعقاب . ومعلوم ان شكل رأس البدوي وشكل دماغهِ ووزنهُ وملامح وجههِ ولون شعرهِ طفلاً وبالغاً كل ذلك مخالف لما يُرى في اكثر الشعوب السوريَّة والسريانيَّة . اه

اطال الله عمر حضرة المنتقد العزيز فانهُ اقام القيامة عليَّ بهذا الاعتراض فمن لي ان اكون عالماً محققاً في العلوم المبني عليها هذا الاعتراض — ان الجواب بما تقتضيهِ العلوم المشار اليها فوق وسعي وفوق معرفتي ومع ذلك اسمعهم يقولون ان ملامح العرب (البدو فقط) تشبه ملامح اليهود والسريان واغلب سكان سوريا مع شدة امتزاجهم بغيرهم من الامم . وان كان يعتمد على مجرّد حكمي من جهة شعوري الخاص اقول اني ارى شبهاً كبيراً في الملامح الظاهرة كلها فيما قد رأيتهُ من صور العبرانيين والسوريين والسريان وبين صور العرب لكن الصور التي يراد بها تصوير النوع لا تصوير فرد بعينهِ . ولعلَّ كثيرين ممن هم مثلي في المعرفة الاثنولوجيَّة والتشريحية يروق لهم جوابي هذا ويسلمون معي بصحتهِ على حضرة المعترض

قال سادساً — ان البلاد التي تخرفيها الشعب ويكثر حتى يفيض منها فيضاناً ويهاجر ابناؤهُ منها يلزم ان تكون بلاداً خصيبة جداً لا قفاراً قاحلة كاكثر بلاد العرب — فان كان لدى حضرة الاستاذ ادلة تشريحيَّة واثريَّة يمتدُّ تاريخها الى قبل الزمن الذي كتبت فيهِ التواريخ العربيَّة والى قبل الزمن الذي كتبت فيهِ التوراة تدلُّ على ان البلاد العربيَّة في مهد الجنس السامي فليتحفنا بها ولهُ الفضل اه

والقول ان البلاد القاحلة كبلاد العرب اذا ضاقت بأهلها اسباب المعيشة وخشوا الهلاك مع الاقامة هاجروا ضرورةً الى ما يجاورهم من البلاد الخصيبة وهذا ما فعلهُ العرب من الوف من السنين لحد هذه الساعة — واما ادلتي التشريحيَّة فلا اتجاسر ان ابدي منها دليلاً واحداً لاني غير ثقة كما اشرت الى ذلك قبل الآن

واما ادلتي الاثرية او التاريخية فقد ذكرت اهمها والواعا في خطابي وما بقي عندي منها فيدعم ما ذكرتهُ لا غير ولكنهُ لا يصح في هذا الموقف موقف الرد على اعتراض وفي ادلة عقلية اراها تقنع لكن لا تجيء الى التسليم بها كالبراهين الهندسية مثلاً وعندي ايضاً تقليد اهل اليمن وقد اشار اليهِ الهمداني صاحب كتاب (وصف جزيرة العرب) في الكلام عن مدينة صنعاء واعيد نقل هذه الجملة من كلامهِ قال — وصنعاء اقدم مدن الارض لان سام بن نوح أسسها — ومن اراد فليراجع هذا الكتاب طبع ليدن سنة ١٨٨٤ وجه ٥٥ . واختم ردي هذا بتكرار تشكراتي لحضرة المعترض واعتذر لقراء المقتطف عما جاء فيهِ من الاسهاب ولا اطيلُ في غير موضعهِ والسلام

بيروت المدرسة الكلية الاميركانية جبر ضومط

وفود المؤتمرات العلمية

حضرات الافاضل اصحاب المقتطف الاغر

كثيراً ما تنتدب الحكومة المصرية رجالاً من ابنائها ليمثلوها فيها في مؤتمر المستشرقين الذي يعقد في اوربا فيذهبون ويتنظر منهم ان يكونوا ممثلي الوطن من المواضيع الهامة التي واصلوا الليل بالنهار في درسها وجمع شواردها ليجعلوا لمصر ميزة في النهضة الادبية الحديثة ثم يعودون الى مصر ولا نعلم ما كان من امرهم ولا يطالبهم احد بما عرضوهُ على المؤتمر من نتائج افكارهم حتى ان الصحف العربية لم تعر هذا الموضوع اقل اهتمام وهو ما يجل عنهُ المقتطف الذي الم بكل موضوع مفيد ولذلك نستغرب اغفالهُ هذا الموضوع ونرجو لا تخلوا علينا في المستقبل بنشر ما يتلوهُ نوابنا في المؤتمرات العلمية عبد الرحمن جمبي

[المقتطف] قلما ذهب وفد الى مؤتمر من هذه المؤتمرات الا طلبنا من اعضائهِ ان يتفضلوا بالمقالات التي يتلونها فيهِ لنشرها او نشر خلاصتها لكنهم لم يفعلوا الا نادراً اما لانهم ذهبوا للنزهة على حساب الحكومة او لانهم لم يتلوا شيئاً يستحق النشر او لسبب آخر لا نعلمهُ والواجب على الحكومة ان لا تختار للمؤتمرات العلمية الا العلماء الفضلاء ذوي الهمة الشماء الذين يفتخر بعلمهم ويستطيعون ان يرفعوا شأن مصر في ما يكتبونهُ وينشرونهُ وان تطالبهم بكل ما يتلونهُ لينشر على الامة التي قامت بنفقات سفرهم